(٤) توفيق الحكيم
يموت فى القاهرة ورواده ينتظرونه بالإسكندرية

الذى ينظر مقدار بوصة واحدة.. فوق السطر الذى أكتب فيه هذه العبارة سوف يقرأ عنوانا كتبنا فيه: «الذى عاش بيننا ٨٩ عاما.. ورحل بعد صديقيه العقاد وطه حسين».. والمقصود بطبيعة الحال هو رائد الفكر والتنوير توفيق الحكيم.. ذلك لأن الظروف الطيبة قد أتاحت له مصاحبة هذين العملاقين منذ أن بدأوا الطريق الفكرى سويا!

ولمن يريد معرفة المزيد عليه الرجوع لما سبق وكتب عن هذين الصديقين اللذين رحلا قبل توفيق الحكيم بسنوات قليلة.. الأول فى عام ١٩٦٤ عن عمر يناهز الخامسة والسبعين.. والثانى فى عام ١٩٧٣ عن عمر يناهز الرابعة والثمانين.

وقد عبر توفيق الحكيم نفسه عن مدى تأثره برحيل هذين الصديقين العملاقين فى عبارة ذكر فيها: «لقد أحلت قلمى إلى المعاش بناء على طلبه. فقد لبث يكتب بلا انقطاع نحو ستين عاما وصاحبه اليوم فى الثمانين. وصديقاه لمعاصران طه حسين والعقاد.

أولهما ترك قلمه للمرض فى مثل هذه السن. والثانى ترك قلمه للقاء ربه فى الخامسة والسبعين. لذلك لم يبق له الآن غير الكلام.. .

ويؤكد الكاتب الصحفى صلاح منتصر. الذى سجل لنا هذه العبارة.. إن توفيق الحكيم كتب هذا الكلام فى ورقة خاصة سلمها إليه بمكتبه فى نهاية عام ١٩٨١.. بمناسبة إجراء حوار صحفى معه.

وحتى بعد هذا التاريخ الذى أحال فيه توفيق الحكيم قلمه إلى المعاش أمام شهود عيان.. معتقدا أن أيامه الأخيرة فى طريقها إلى النهاية عاش بيننا لأكثر من ست سنوات.. قاسى خلالها العديد من الأمراض. كان من أخصها أمراض الشيخوخة والوحدة.. بعد أن مات ابنه إسماعيل ورحلت من بعده زوجته.

ففى عام ١٩٨٩ رحل هذا العملاق.. وقبل هذا التاريخ بثمانية وثمانين عاما ولد لأبوين مصريين بحى محرم بك بالإسكندرية وقد ظل يعيش بها حتى نال الشهادة الثانوية التى أهلته لدخول كلية الحقوق لدراسة القانون.. وكانت آمال أسرته العريضة تنحصر فيما كان عليه أبوه القاضى إسماعيل الحكيم الذى استمد كيانه الاجتماعى من هذا المنصب الرفيع.

ولكـن لحكمـة لم نكن نعرفهـ في حينهـا ولا حتى هو أو أسـرته.. تغيرت وجهة حياته نحو المسـيرة إلى مكان آخر.. لا يمـت بأية صلـة لا إلى القانون ولا لى العاملين به.. هذه الحكمة تجلت فى ريادته لأحد فروع هذا الفن الجميل الذى أضاف إليه الكثير وتغنى به فى فن الكتابة المسرحية هذا بالإضافة إلى إتقانه العديـد من ألوان الأدب والفكر.. وارتياده آفاقا حضارية أراد من خلالها الوصول إلى الكمال.

وقـد برزت على الطريق نظريـة التعادلية التى أراد أن يبثها فـى حياتنا.. ولكنها لأسـباب غير منطقيـة لم تصل إلى ما كان يرمـى إليه توفيق الحكيم مـن أهداف. وتلك كانت بعض مظاهر عظمـة هذا الرجل التى أهلته لكى يتربع على عرش هذه الحياة من بعد صديقيه طه حسـين والعقاد.. وأسـتاذهما أمير الشـعراء شوقى..

ولو استعرضنا سويا مسيرة حياة هذا العملاق.. سوف تكشف أكثـر وأكثر مواطن العظمة فى حياته سـواء من قبل أن يشـتغل بالفكر أو من بعد ذلك.. مع التسـليد بشـىء هام وعظيم.. هو أن لحظات الميلاد نفسها هى التى قد تـدفع الإنسان إلى نهايته التى لا يعرف مداها أو منتهاها! سـواء أصيب بأمراض الشـيخوخة

أو بغيرها.. لأنه مع تقدم الأيام وزحف السنين إلى الصدور وإلى القلوب يهيئ الإنسان نفسه لبلوغ النهاية.. وذلك ما عبر عنه توفيق الحكيم نفسه فى الكثير من أحاديثه الصحفية.. خاصة فى السنوات الأخيرة من حياته.. وكما سوف يمر علينا بعد قليل!

***

وبالعودة إلى ما سطره التاريخ عن مسيرة حياة توفيق الحكيم.. نجد أن توفيق الحكيم من مواليد ٨ أكتوبر ١٨٩٨.. واسمه الحقيقى بالكامل حسين توفيق إسماعيل الحكيم.. واسم الشهرة كما نعلم توفيق الحكيم.. وهو كما يبدو اسما مركبا لشخص واحد.

وكان من المفترض فى إطار الجو التقليدى الذى تربى فيه أن يسير على نفس طريق والده الذى عمل بالقضاء، ولذلك فقد أدخله مدرسة الحقوق. وأرسله إلى باريس لدراسة الدكتوراه. ولكنه فى باريس نسى القانون والدكتوراه التى سافر من أجلها وانجذب إلى الأدب والفن والمسرح.

وعلى مدى الأعوام الثمانية والثمانين التى عاشها بيننا ترك وراءه أكثر من ١٠٠ مسرحية و ٦٢ كتابا كان أولها أو أعظمها كتاب «عودة الروح» الذى أصدره فى عام ١٩٣٣.. وآخر هذه الكتب كتابه الذى صدر فى عام ١٩٨٣ بعنوان «مصر بين عهدين».

وقد تزوج توفيق الحكيم فى سن متأخرة وكان ذلك فى الخامسة والأربعين من عمره وأنجب إسماعيل وزينب. وفى عام ١٩٧٧ رحلت زوجته وبعدها فى أكتوبر ١٩٧٨ مات ابنه إسماعيل وهو فى سن الثلاثين.

ونستطيع أن نؤكد وفق ما جاء فى هذه السطور القليلة عن مسيرة حياة توفيق الحكيم.. أن أيامه الأخيرة قد بدأت تشده بقوة إلى النهاية المحتومة. حيث الموت والرحيل من نهاية عام ١٩٧٨.. إذ شعر بالوحدة وبدأت أمراض الشيخوخة أيضا تزحف إلى نفسه.

ولكننا من أجل المزيد من المعرفة عن مشوار حياة هذا العظيم الذى سطر بعض ملامح هذا المشو ر بقلمه فى أكثر من مناسبة خاصة فى كتابه «سجن العمر».. فسوف نعرض لبعض التفاصيل المرجوة حتى تكتمل المعرفة المنشودة فى هذا السياق.. وكانت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد من أكثر المصادر التى تغنت بهذه التفاصيل لأهميتها فى اكتشاف تخصية الحكيم..ففى عام ١٩١٩ شارك فى الثورة بأول عمل دبى مسرحى.. حين أخرج لنا مسرحيته أو روايته «الضيف لثقيل»، وكانت حوارتها تدور حول الاحتلال البريطانى. وقد رفضت السلطات القائمة آنذاك السماح بتمثيلها فقبض على توفيق الحكيم أثناء ثورة ١٩١٩..

وحقق معه وأعمامه على إثر ضبط منشورات بمنازلهم. وأكثر من ذلك. فقد نظم توفيق الحكيم الشعر والزجل بل وعالج التلحين. وكل ذلك كان من وحى الثورة.

ومضى توفيق الحكيم فى طريق الفن ضاربا عرض الحائط برغبة الأسرة.. فكتب لفرقة عكاشة رواية «العريس» التى مثلتها فى عام ١٩٢٤.. كما مثلت له نفس الفرقة مسرحية على بابا» وهى من نوع الأوبريت. ثم أخرجت له أيضا مسرحيتى «خاتم سليمان» و«المرأة الجديدة».

وقد عاصر توفيق الحكيم فى الفترة نفسها مجموعة من المؤلفين المسرحيين من أمثال الشيخ يونس القاضى وعباس علام وسليمان نجيب وبديع خيرى وغيرهم.. وهم من الذين كانوا يكتبون المسرحيات آنذاك لفرق أولاد عكاشة.

ولولا قرار الأسرة بسفر ابنهما إلى باريس أملا فى تحقيق أمنية الحصول على الدكتوراه فى القانون لاستمر يعيش فى هذا الوسط الفنى.. ولتوقف رصيده الفكرى عند هذا الحد.. إذ يعتبر توفيق الحكيم نفسه وعلى حد قول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد هذه الرحلة الحدث الذى غير مصير حياته ومفاهيمه وفتح عينيه على قيم جديدة للأدب والحياة.

فمـا كان ليخطـر بباله قط. أن الأدب يحتاج إلى اطلاع واسـع وعميق. كما راعه أن ما نسـميه فى مصر مسـرحا إنما هو فىأوروبا قسم نابع من أقسام الأدب. وحين يعنى المسرح فى أوروبا لونا رفيعا من الفن ينظر إليه فى مصر على أنه خروج على الأدب «قلة حياء» وكتابه مشخصاتية ولايطالون الأدباء ولايحسبون عليهم.

ثـم عاد الحكيم مـرة أخرى إلى مصر فى عـام ١٩٢٨ وعمل بالنيابة المختلطة بالإسـكندرية لمدة عام.. انتقل بعدها إلىالقضاء الأهلـى لمدة خمس سـنوات متنقلا بين طنطا ودمنهور ودسـوق وفارسـكور وإيتاى البـارود وكوم حمادة، وقد سـجل انطباعاته عـن العمل فى هذه الفترة فـى كتابه الجميل «يوميات نائب فى الأرياف».. ثم كتابه «ذكريات الفن والقضاء».

وفى حياة الحكيم العظيم. كان هناك نوعان من الانتقال.... الأول تمثل فى الخروج من مصر إلى أوروبا.. أمّا الخروج الثانى.. فكان من مصر إلى الريف.. وإن لم يبـغ خروجه الأخير فى تأثيره شأن انتقاله من مصر إلى أوروبا.

وبعد فترة عمل فيها الحكيم بوزارة المعارف مديرا للتحقيقات، تركهـا واشـتغل بالصحافة فـى أخبار اليوم.. علـى أن اتصاله بالصحافة كان سباقا على أخبار اليوم.. فقد كتب وهو فى وزارة المعارف كثيرا فى «مجلتى».

ثم عادت الوظائف فشدت إليها «توفيق الحكيم» فعمل مديرا عاما لدار الكتب، ثم عضوا متفرغا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ثم مندوبا لمصر فى اليونسكو فى عام ١٩٥٩.. بعدها عاد إلى مصر فى مارس عام ١٩٦٠.

وبعد عودته عين عضوا بمجمع اللغة العربية. وفى فبراير من عام ١٩٦٢ عين مقررا للجنة جوائز الدولة للفنون.. وكان آخر منصب تولاه شرفيا هو رئاسته لاتحاد كتاب مصر.. والذى ظل رئيسا له حتى وفاته!

وقد نوقشت عدة رسائل للماجيستير والدكتوراه فى حياته وفكره.. كما تم تكريمه فى حياته فى أكثر من مناسبة.. ففى عام ١٩٥١ منح جائزة الدولة للأدب عن كتابه «مسرح المجتمع» وقلده جمال عبد الناصر قلادة الجمهورية للأدب والفكر فى عام ١٩٥٨.. وفاز بجائزة الدولة التقديرية فى الأدب عام ١٩٦٠ من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.. كما حصل فى عام ١٩٨٣ على درع الثقافة.. ثم رشح لنيل جائزة نوبل للآداب فى أعوام ١٩٨٠ و ١٩٨٢.

وفى فترة عمله بأخبار اليوم اشتهر بأنه عدو المرأة. وبدأت هذه الشهرة بشائعات أطلقها زملاؤه عليه، وقد ساعد هو فى

تقويتهـا بأرائه التى كان يعلنها عن المرأة فى كل مناسـبة برغم أن جلسـته المفضلـة فى أخبار اليوم على حـد تأكيد العديد من الصحفيين كانت فى حجرة المحررات!!

وكان دائمـا يعلن أنه يفضل التـنق على الـزواج. ولكن هذا العدو اللدود للمرأة.. كما كان يعلن دائما وقع فى شباك الزواج.. فتزوج من السيدة «سيادات بيومى».. وكما كان هذا الزواج مفاجأة للجميع فقد كان أيضا أغرب زواج فى العالم. حيث كتب توفيق الحكيم كما يقال عقدا مكونا من (١٥) بندا واشـترط على عروسه أن توقع أمام كل بند بالعلم قبل أن يتم الزواج، وكان من أغرب هـذه البنود ألا يتـم الإعلان عن هذا الزواج!. وألا يخرج معها. وألا تفاتحه فى أمر شـراء سـيارة وأن يعطيها فقط مائتى جنيه فى الشهر.

والغريب كما يقول بذلك الراوى إن السـيدة «سيادات» قبلت هـذه الشـروط جميعا بدليـل أن زملاء الحكيم فـى أخبار اليوم اكتشفوا زواجه بالصدفة!!

وأنجـب توفيـق الحكيم كما سـبق وذكرنا ابنـا وبنتا.. هما إسماعيل الحكيم الذى اختار اسمه على اسـم والده.. وقد عشـق الموسـيقى وكون فرقة موسيقية مفضلا الفن على العمل فى النيابة

كمـا كان يحلم والده.. وقد توفى إسماعيـل فى عام ١٩٧٨ بعد إصابته بتليف فى الكبد بعد عام واحد من وفاة والدته.

ثـم زينب التى لازمته حتى آخـر لحظة من لحظات عمره.. ولسـوف يكون لنا معها وقفة نسـمع من خلالها شهادتها التى سـجلتها عما عاصرته مـن أحداث فى الأيـام الأخيرة من قبل رحيل حكيم.

وقد قضى توفيق الحكيم السـنوات الثلاثة الأخيرة من حياته فى متاعب صحية عديدة سـواء بسـبب أمراض الشـيخوخة أو أمراض الوحدة والأحزان التى توالدت عن رحيل ابنه إسماعيل. ولدينا صورة صادقة سوف ننقل بعض ملامحها لبيان مدى الآلام التى أصابـت توفيق الحكيم من بعد وفاة ابنه وهذه الصورة بكل ملامحها قد ذكرها إبراهيم عبد العزيز حين كتب لنا عن الرسائل الخاصة فى حياة الحكيم. وقد قال:

«عندما اشتد الألم على إسماعيل، نادى والده.. «آه يا بابا. وكانت كلمة بابا أجمل كلمة يسمعها توفيق الحكيم فى حياته.. ولم يشـعر طعـم ومذاق هـذه الكلمة إلا فى هذه السـاعة. ولكن بعـد فـوات الأوان.. ففى الوقت الـذى كان فيه الحكيم يجلس

فـــى صالون البيت يتحـــدث إلى الطبيب بشـــأن علاج إسماعيل فى الخارج، جـــاءه صوت «ناجا» أخت إسماعيل وصوت زوجة إسماعيل الثانية «هيدى» وهما تصرخان: إسماعيل مات!!

ولم يشـــعر الحكيم بنفســـه إلا وهو يقوم من مقامه ويقع على الأرض... ويقوم ويقع خلال حركته من حجرة الصالون إلى شرفة البيت وهو يلطم خديه كالنساء. ثم ما هى إلا ساعة حتى جلس صامتـــا يحمل على كاهله جبلا مـــن الحزن المهيب. وقد بدا لمن رآه فـــى ذلك اليوم متجلدا عجيبـ يخفـــى خلفه بركانا من الآلام والهمـــوم. والأحزان والندم. وكل ما تركه فى دنياه ورقة صغيرة كتب فيها عبارة قصيرة: «كل شـــىء راح ولم يبق شـــىء».. ولا يملك الحكيم إلا أن يقول: «اغفر لى يا ابنى»!!

وكلما اقترب شهر أكتوبر خاصة ٢٤ منه ينتاب الحكيم حالة حزن وتبدأ نفســـيته فى التعب والشـــعور بالذنب اعتقادا منه أن إهماله لابنه منذ طفولته وحرمانه من حنانه كان سببا فى موته. بل كان سببا فى قتله.!

وتحـــاول ابنته زينب أن تخفـــف عنه بأنه لا يزال باقيا على شهر أكتوبر عدة شهور أخرى.. برغم أنها هى الأخرى تتشائم من ذلك الشـــهر لأن فيه مات زوجها، وحتى والحكيم فى المستشفى

أثنـاء مرضه الأخير يتذكر شـهر أكتوبر فتطمئنـه ابنته بأن هذا الشهر لا يزال بعيدا فلا يخاف ولا يجزع.

ومع بداية ذلك الشـهر من كل عام.. يعيش الحكيم ذكريات مأساة أبوته المفقودة لإسماعيل ويتفاقم لديه الشعور بالذنب طالبا من الله الصفح والغفران.

ويـوم الذكـرى الأليمة فـى ٢٤ أكتوبر من كل عام يسـتيقظ الحكيم ليرى انطباع ذكرى ذلك اليوم على وجوه من حوله، ممن يعيشون معه والذين يحرصون على عدم الاقتراب منه أو التحدث إليه فى هذا اليوم، إلا إذا تحدث هو إليهم أوطلب منهم شـيئا. ما عدا ذلك يتركونه فى صمته مع أحزانه.

وقبـل رحيل ابنه إسماعيل عاش نفس المأسـاة عندما رحلت زوجتـه التى قيل إنها أصيبت بشـلل أقعدها عن الحركة حتى توفيت.. وقد أصاب الحزن الشديد توفيق الحكيم على فراق هذه الزوجة المخلصة.

* * *

ويوم أن مات ابن الحكيم فى عام ١٩٧٨ كان قد بلغ من العمر ثمانين عاما..وكما سبق لنا القول بإن هذا العظيم قد بدأت أمراض الشيخوخة تهاجمه بقوة وقسوة بدأت من عام ١٩٨١.. عندما قرر

اعتزال الكتابة، إلا أن الأمراض الشديدة لم تبدأ بشكل مباشر فى وضع النهايات المحتومة فى حياة الحكيم إلا منذ عام ١٩٨٤.. عندما نقل إلى مستشفى المقاولون العرب مصابا بالغيبوبة.

ففى ٢١ أبريل من العام نفسه، استدعيت سيارة الأسعاف الخاصة بالعاملين فى جريدة الأهرام لنقل الأستاذ من بيته المطل على النيل إلى مستشفى المقاولون العرب، إثر إصابته بهبوط فى القلب والتهاب رئوى حاد.. وقد تم إدخاله غرفة العناية المركزة ومنع الأطباء زيارته لحرج الحالة التى يجتازها.

وعلى حد قول الكاتب الصحفى صلاح منتصر الذى كان من المتابعين لحالة توفيق الحكيم خلال هذه الفترة.. فقد التزم أصدقاء الحكيم بعدم زيارته لتفادى إزعاجه، واستمر هذا الالتزام حتى بعد خروج الحكيم من غرفة العناية المركزة ونقله إلى الجناح رقم (٤١١) الذى أصبح منذ ذلك الوقت يحمل اسم جناح الحكيم.

وفى التقرير الطبى الذى أصدرته المستشفى آنذاك عن حالة الحكيم.. قال الدكتور عبد المنعم حسب الله أستاذ الأمراض الباطنة بطب القصر العينى إنه بعد إجراء الأبحاث والفحوصات الطبية وأهمها رسومات القلب وأشعات الصدر.. تبين أن توفيق الحكيم كان مصابا أصلا بقصور فى الدورة التاجية للقلب، وكان من أهم

أسـبابها تصلب الشرايين الناتج عن عامل السن.. وكذلك إصابته بنزلة برد شـديدة.. وقد أدت هـذه النزلة ومع تقدم عمر الحكيم إلى إصابتـه بالتهاب رئوى.. حيث أصيـب فص كامل من الرئة اليمنـى.. مما أدى إلى انكماش الرئة، مما زاد من صعوبة التنفس حيث أصبحت الرئة المصابة بالتهاب لا تعمل بكفاءة عالية.

علاوة على ضغط السـائل البللورى على القلب، مما دفعه إلى الجانب الآخر مـن الصدر.. ونظرا لوجود قصور بالدورة التاجية فى الأصل أدت جميع هذه العوامل إلى حدوث هبوط بالقلب مما أدى إلى حالة الصعوبة الشديدة فى التنفس.

ويقول صلاح منتصر أهم أحد شـهود عيان الأيام الأخيرة فى حيـاة توفيق الحكيم.. إنه فى أواخر شـهر يوليو من عام ١٩٨٤ وكان شـهر رمضان قد بدأ. تذكرت توفيق الحكيم الذى انقطعت أخباره بعد أن دخل المستشـفى، وأصبح الإعلان عن خبر وفاته أمرا متوقعا.. ولما كنت أكتب فى الأهرام مقالا أسـبوعيا فى ذلك الوقت كل يوم أحد تحت عنوان «مجرد سياسـة» فقد فكرت أن أذهب إلى توفيق الحكيم وأسجل معه- كسبق صحفى - الحديث الأخير له وهو على فراش الموت وفى انتظار الرحيل.

وفـى يـوم الأربعاء ٥ يوليـو بعد الإفطار – والـكلام لا يزال لصـلاح منتصر – دخلت جناح توفيـق الحكيم.. لم يكن هنالك أحـد فى الصالون الملحـق بالغرفة التى فيها السـرير الذى ينام عليه.. لا زائر ولامرض ولا ممرضة.. ولا صوت لأحد!!

أهكـذا يكون حال مثل هؤلاء العظماء فى أيامهم الأخيرة؟!.. إنه شىء صعب على النفس – التعليق للكاتب.

وفى هدوء سـحبت كرسيا وجلست أمام سريره، ونظرت إليه ووجدت صوتا يصرخ بداخلى: هل هذا هو توفيق الحكيم؟!

كان الرجـل عبارة عن كومة هشـة من اللحـم، وقد اختفى جسـمه تحت الأغطية ولم يظهر منه سوى وجهه والطاقية التى كان يغطـى بها رأسـه.. وكان الوجه بتجاعيـده الغائرة يعطى إحساس إنسان وضع قدمه على حافة القبر وجلس فى الانتظار!

ونظـر إلىّ توفيـق الحكيم بعينـين هزيلتين.. وبدأت أسـأل نفسى: ماذا أقول له؟!

إننـى لا أذكر منـذ عرفته أنى دخلت عليـه مكتبه بالأهرام وجلسـت أمامه دون أن أثير أمامه قضية يتحمس للحديث عنها والتفكير فيها. وأسـتمتع أنا بالاسـتماع إليه.. ولعل هذا ما كان يحببـه فـى زيارتى له.. ولكن هـذه المرة كان يبـدو فى حالة

مختلفة.. ووجدت نفسى وقد تغلبت على أنانية الصحفى أقول له – وأنا أضغط على زرار جهاز التسجيل الذى كنت أحمله.

– توفيق بيه كلمنى عن الموت.. لقد فهمت أنك كنت قريبا منه، أو ربما عشته وأريد أن أسمع منك: هل كنت تتمنى فعلا أن تموت؟ هل حلمت أوتمنيت أن تموت ثم تعود إلى الدنيا لتفاجئ أصدقاءك ومعارفك وترى أثر عودتك عليهم؟.. هل الموت أجمل أم الذى تعرفه أفضل من الذى لا تعرفه؟

قال لى توفيق الحكيم: «لم يعد لى سوى الله.. وفى دعواتى السابقة إليه لم يحدث أن دعوته بشدة طالبا منه أن يأخذنى إلى جواره مثل هذه المرة، لأن مهمتى فى الحياة انتهت، تصور أى مسرح فى آخر الليل.. بعد أن يغادر الجمهور وينصرف ممثلوه وعماله، مسرح خال بدون جمهور.. ما الذى يبقى له سوى أن يمد عامل يده ويطفىء ما بقى فيه من أنوار!! أنا هذا المسرح.. وهذا الوقت بالذات هو الوقت المناسب الذى يجب أن ينطفىء فيه نوره!»

ويقول صلاح منتصر أيضا فى هذه الشهادة المهمة: لقد روى لى توفيق الحكيم كيف أن الأطباء أخبروه أنهم بالفعل هيأوا أنفسهم لموته، ولكن المعجزة الإلهية شاءت أن يعيش، وقلت له:

هل معنى ذلك أن إرادة الحياة تغلبت فيك؟. قال توفيق الحكيم منتفضا: إرادة حياة مين؟ إن الذى لدى هو إرادة الموت. لكن ربنا لم يرد.. وبدأت أسير فى طريق الشفاء.

وبدأت أسأل ليه يارب مديت فى أجلى. وهل هو أجل بسيط. ربما كان قصيرا. وربما كان طويلا. ولكن المهم ليس الأجل. المهم هو المهمة أو العمل الذى يمكن أن أقوم به فى هذه الفترة التى أعيشها.

وعندما كان الأطباء يطمئنوننى على شفائى فقد كنت أسألهم بصدق: وما الفائدة من حياتى؟. وكانوا يقولون: علشان تمتعنا.. ليه.. هو أنا مطرب؟!.. يقولوا لى علشان تكتب لنا.. أكتب؟! هو أنا لسه حاكتب؟ أنا أريد شيئا له قيمة.. مهمة غير الكتابة لأنه ما فائدة الكتابة؟ الناس لو بتقرا كن يبقى فيه أمل.. لكن الناس النهاردة للأسف لا تريد القراءة.. إذا قرأت فهى تقرأ الصحافة والمقال الطازج.. وما عندى الآن ليسوى ذكريات قديمة.. وحياة قديمة.. والناس عاوزه الطازه.. عاوزه الجديد.. لكن أنا بقيت روبابيكيا!

ويضيف فى نفس الشهادة التاريخية عن أيام توفيق الحكيم الأخيرة: وعندما زرته لأول مرة بعد شهرين من مرضه وعزلته

وحده. بـلا أصدقاء. أو زوار. أو تليفونات تسـأل عنه وتعطيه أهمية. كان أدق ما ينطبق عليه ما قاله هو نفسه فى أحد مقالاته القديمة: «إن الفنان أو الأديب لا يهدمه الذم أو النقد. بل إنهما يدعمان وجوده. إنما الذى يهدمه ويقتله هو الإهمال..».

وتتابعت زيارتى لتوفيق بيه.. وفى الوقت نفسه توافد الزائرون عليه..أصدقـاء ورسميـون ووزراء. ومنهم وزيـر الثقافة فى ذلك الوقت المرحوم محمد عبد الحميد رضوان. إلى جانب زوار آخرين كانـوا فى زيارة أقرباء لهم فى المستشـفى وعرفوا من الأحاديث التى نشـرتها بوجوده فى المستشفى فوضعوا فى برنامجهم المرور عليـه. وبعضهم جـاء ومعه باقات الـورود التى ملأت جنبات الجناح. الذى كان قبل أيام يشكو من الوحدة والذبول.

* * *

وبعد أن قضى العملاق توفيق الحكيم تسـعة أشهر فى فراش المرض داخل مستشفى المقاولون العرب عاد من جديد إلى الحياة.. بعدمـا كان اليأس فى شـفائه قد ضـاع.. وبالتالى رجع ولو على اسـتحياء لممارسة نشاطه الذهنى والفكرى برغم أن هذا الرجوع. كان فى قرارة نفسه.. نوبة صحيان مؤقتة.. يعاود بعدها الاستعداد للرحيل الأخير.

وقد ظن أن هذه النوبة قد لا تطول ربما لعدة ساعات.. ولكن نظرا لإرادة الله.. والالتزام بقاعدة لكل أجل كتاب وساعة رحيل.. فقد ظل توفيق الحكيم يعيش على هامش الحياة.. قاعدا أو جالسا أو نائما أو متألما لأكثر من ثلاث سنوات.. رحل بعدها عن عالمنا

ولم تكن تلك السنوات الثلاث على خلاف غيرها من السنوات العجاف صحيا والتى بدأت فى حياة الحكيم منذ أوائل الثمانينات.. بل بالعكس كانت صحته تشهد بين الحين والحين تدهورا مستمرا. إلا أن رعاية الأطباء له ومتابعتهم حالته الصحية يوما بيوم قد خفت عنه حدة آلام هذه الأيام.

وظل الحكيم كذلك على هذه الحالة ما بين الصعود والهبوط حتى شهر أبريل من عام ١٩٨٧..وهو عام الرحيل.. عندما أعلنت الصحف نقل توفيق الحكيم إلى القصر العينى بعد إصابته بغيبوبة!

وجاء فى التفاصيل.. إنه فى صباح يوم ١٢ أبريل تم نقل الكاتب الكبير إلى مركز رعاية الحالات الحرجة بالقصر العينى. وهو المركز الوحيد من نوعه فى مصر إثر أزمة صحية مفاجئة أصابته بغيبوبة منذ يومين!

وقال الدكتور شريف مختار أخصائى القلب والمشرف على المركز إنه تم إجراء رسم قلب وبعض التحاليل. وكان

التشـخيص المبدئى هو إصابة الكاتب الكبير بهبوط فى القلب وقصور فى الدورة الدموية.. صحب توفيق الحكيم ابنته زينب وزوجهـا إبراهيم عزت إلى المستشـفى. وبعد ٤ سـاعات من دخوله القصر العينى بدأ الحكيم يفيق تدريجيا من الغيبوبة.

ومنذ هذه الساعة بدأت الصحف والمجلات.. فى كل مكان تتابـع حالة الحكيـم.. وكان يرقد آنذاك فـى العنبر رقم (١) بالقصـر العينى.. والسـيدة زينب الحكيم تـروى لنا هذه المرة قصة المرض الأخير فى حيـاة والدها.. وكيف تطور هذا المرض منـذ عام ١٩٨١.. فقالت: «كان بابـا طبيعيا ولم يكن هناك ما ينذر بالمرض.. وحالته النفسـية طبيعيـة. وكان يمارس حياته أيضا بشـكل طبيعى ويدخل حجرته ليكتب مقاله للأهرام. ولم تظهـر أية أعراض للمرض سـوى قبل دخوله المستشـفى بيوم واحد. عندما ارتفعت حرارته فجأة وامتنع عن الطعام. فاتصلنا فـورا بالدكتـور أحمد عبد العزيز إسماعيل الـذى أمر بنقله إلى المستشـفى.. وهناك اكتشـفوا أنها نفس الحالة التى حدثت له منذ ثلاثة أعـوام عندما نقلناه إلى مستشـفى المقاولون العرب.. فقد أصيب وقتها بالتهاب رئوى حاد.. فجأة أيضا ولم يكن له سابق إنذار».

ويكمل هذه الشهادة الطبيب شريف مختار الذى قال: «الحالة كانت حرجة فهو مصاب بهبوط فى القلب وقصور فى الدورة الدموية وفشل كلوى نسبى. هذا غير أنه فى حالة غيبوبة كاملة».

أما الدكتور أحمد عبد العزيز طبيب الحكيم الخاص منذ ثلاثين عاما فقال عن نفس الحالة: «الحالة بدأت بنزلة شعبية حادة أقرب إلى الالتهاب الرئوى ثم شفى منها تماما منذ عشرة أيام.. وكان قد تناول جرعات كبيرة من المضادات الحيوية التى أدت إلى عزوفه عن الطعام والشراب.. مما أدى إلى قصور فى الدورة الدموية. تماما مثل الحالة التى حدثت له فى عام ١٩٨٤ والتى أدت إلى نقله إلى مستشفى المقاولون العرب بالجبل الأخضر والتى ظل بها لمدة تسعة أشهر. وبالتحديد من إبريل عام١٩٨٤ إلى يناير عام ١٩٨٥.. ولدينا أمل فى شفائه هذه المرة أيضا!»

* * *

وكأنما صدقت دعوات طبيبه الخاص..وتنبوءاته بشفاء توفيق الحكيم وعودته إلى منزله هذه المرة أيضا.. فبعد أكثر من شهر قضاه الحكيم فى القصر العينى تحت الملاحظة والرعاية.. عاد يمارس حياته مرة أخرى.. ولكنه لم يعد قادرا على كتابة مقاله

الأسبوعى بجريدة الأهرام..وقد توقف عن كتابته من قبل دخوله المستشفى هذه المرة. وكان آخر هذه المقالات ما نشر بالأهرام فى ١٣ أبريل عام ١٩٨٧بعنوان «الفكر السياسى».

ونحن نعتقد أن هذه المرة التى أصيب فيها الحكيم بالالتهاب الرئوى ودخل من بعدها القصر العينى.. كانت فى تصور الأطباء المرة الأخيرة التى من الممكن أن يرحل بعدها الحكيم إلى عالم الأبدية.. مع التسليم بشىء هام يتفق مع الإيمان بقدرة الله.. وهو بأن لكل أجل كتاب.. وأقول هنا أعتقد أن التصور الأخير للأطباء كان هو الأرجح، ذلك لأن الأيام نفسها قد أثبتت ذلك . إذ لم يمر سوى شهرين حتى غادرنا الحكيم لآخر مرة.. عندما أعلن عن خبر وفاته فى ٢٧ من شهر يوليو عام ١٩٨٧.

وفى هذه المرة الأخيرة.. لم يسلم الحكيم نفسه من الإرهاق وتعب التنقل بين أروقة المستشفيات ودخول مراكز عنايتها، سواء الخاصة بالقلب أو بالتنفس!

ففى أوائل شهر يوليو وقبل رحيله بعشرين يوما نقل للمرة الأخيرة إلى مستشفى المقاولون العرب بعد ما قضى أكثر من شهر مريضا فى مستشفى السلام الدولى.

وجاء فى التقرير الطبى الأخير الذى أذاعته إدارة المستشفى أن الحكيم دخل إلى المستشفى مصابا بالتهاب رئوى، والتهاب

فـــى عضلة القلب والغشـــاء المحيط بها.. مـــع ارتفاع فى درجة الحرارة، وكانت نسبة الوعى لديه قليلة.. إلا إنه بعد أيام بدأت حالته فى تحقيق بعض التحســـن فانخفضت الحرارة إلى الدرجة العادية وتحسنت درجة الوعى قليلا.

وكان قد أشرف على العلاج فى الأيام الأخيرة من حياة توفيق الحكيم الدكاترة عبد المنعم حسب الله أستاذ أمراض الباطنة بطب القصر العينى والدكتور محمد ســيد الجندى أستاذ أمراض القلب والدكتور الحســـن الغنيمى أستاذ أمراض الباطنة والدكتور يحيى طاهر أستاذ المخ والأعصاب.

وقال الدكتور محمد ســيد الجندى: إن حالـــة توفيق الحكيم كانـــت فى غيبوبة فى أغلب الوقـــت ولذلك كان حديثه نادرا أو منعدمـــا تقريبا. وقد أصيب فى آخر يومين بجلطة فى شـــرايين الساق اليسرى، ساءت بســـببها حالته الصحية.. فتقرر نقله إلى غرفة العناية المركزة وهو فى غيبوبة كاملة. واستمر بها حوالى ٢٤ ساعة قبل أن تفيض روحه فى تمام الساعة العاشرة من مساء يوم الأحد ٢٦ يوليو من عام ١٩٨٧.

ولقد شـــهدت الأيام بل الســـاعات الأخيرة مـــن حياة توفيق الحكيم نوعا من الهدوء النفســـى والجسدى معا حيث كان يرقد

فوق سريره من دون أن يدرى بكل ما يدور حوله.. وكان محبوه ومرافقوه هم الذين يسجلون عليه هذه اللحظات.

وكما سبق ومر علينا.. فقد عاش الحكيم لفترة امتدت لأكثر من ثلاث سنوات فى غيبوبة الموت.. التى كان يفيق منها من حين إلى حين. وبالتالى كانت أيامه الأخيرة تقتربى ببطء نحو النهاية!. وقد أبت عليه الحياة بهدوئها إلا أن يموت فوق سرير المرض فى الجناح (٤١١) بمستشفى المقاولون العرب.. التى كان قد دخلها قبل رحيله بعشرين يوما فقط!

وبرغم تحسن حالته المرضية نسبيا إلا إنه ظل طوال الأيام التى سبقت الرحيل فى شبه غيبوبة الموت.. وكان قد أصيب قبل لحظات الموت المؤكد بأزمة صحية نقل على إثرها إلى غرفة الإنعاش التى لفظ فيها أنفاسه الأخيرة. فى حضور ابنته زينب التى شهدت تلك اللحظات المرعبة وأيضا فى حضور عدد من كبار الأطباء الذين أشرفوا على علاجه.

وقالت زينب الحكيم عن تلك اللحظات الأخيرة فى حياة والدها من قبل أن يسلم روحه إلى الله: إنه عندما عادت إلى منزلها بجاردن سيتى مساء الأحد. اتصلت بمستشفى المقاولون فأخبرها الأطباء إنها يمكنها العودة فورا للمستشفى والمبيت مع

والدها، فشعرت أن هذه هي الليلة الأخيرة في حياته وبالفعل ظلت بجواره هي وفريق الأطباء حتى فارق الحياة.

وقالت زينب أيضا إن آخر ما طلبه والدها قبل وفاته أن ينتقل من العناية المركزة إلى جناحه بالمستشفى ليموت بجوار صورته ولوحة يزينها لفظ الجلالة معلقتين على جدران جناحه.. وإنه عندما كان يفيق من غيبوبته يسألها عن أحوالها وأحوال أحفاده ثم يطلب ورقة وقلما يضع عليها بعض الخطوط ليثبت لمن حوله أن يده قادرة على الكتابة، كما أنه أوصاها بألا تتصرف في أشيائه الخاصة!

* * *

وفي صباح يوم الإثنين ٢٧ يوليو خرجت كل الصحف والمجلات بنبأ وفاة عملاق الأدب والفكر توفيق الحكيم عن عمر يناهز الثامنة والثمانين.. وقد وافته المنية في غرفة الإنعاش في الساعة العاشرة من مساء الأحد.

وفي يوم الثلاثاء تم تشييع جنازة الحكيم في جنازة عسكرية.. بدأت من مسجد عمر مكرم من قبل أن ينقل الجثمان إلى مدينة الإسكندرية مسقط رأسه لدفنه هناك تنفيذا لوصيته الأخيرة. كما تم إبلاغ الرئيس السابق مبارك في مقر إقامته حيث كان آنذاك بأديس

أبابا.. وقد أصدر أوامره بأن تكون الجنازة عسكرية تكريما لعطاء الحكيم لمصر وللفكر العربى.

كما أصدرت رئاسة الجمهورية بيانا نعت فيه فقيد مصر والعالم العربى.. وذكر البيان: «إن مصر فقدت علما شامخا وشخصية فذة برحيل الأديب الكبير توفيق الحكيم الذى ظل معبرا عن نبض الشعب المصرى لمدة تزيد عن ٦٠ عاما أثرى خلالها الأدب العربى والعالمى وكان نموذجا للفكر الذى يتفاعل مع حياة العصر وينفعل بنبض الجماهير».

هذا وكانت أسرة الحكيم قد سبقت جثمانه إلى مدينة الإسكندرية لتكون هناك فى استقباله وتقبل العزاء بدار المناسبات بحى المنارة قبل تشييع جثمان الكاتب الكبير إلى مقره الأخير.

* * *